مُقَدِّمَة

الفن الجدارى أو الجداريات كما اصطلح عليهـا واحـد مـن حقـول الفـن التشكيلي... هذا العنوان يتكئ على مصطلح فنى ذى تاريخ طويل وسمات جمالية متنوعة ، وهو يجيء فى المصادر المختصة تحت عنـوان : Mural Painting أو Wall Painting ، والذى يعنى الرسم على الحائط لأغراض متعـددة ، قـد تكون تسجيلية أو رمزية ، وقد تكون جمالية خالـصة. وعمومـاً ارتـبط الفـن الجداري بوجدان الإنسان ليعبر عن مكنونات أخرى تستمد أصولها مـن دوافـع ومرجعيات عديدة ، وقف العامل الديني في مقدمتها فاعلاً ومؤثراً وموجهاً .

نشأة الفن الجـدارى :

فالفن الجداري نشأ فى أحضان الدين أو كانت الجداريات ترسم فـى المعابـد والمقابر ، وبعدها فى الكنائس والمساجد لذا ظلت رسوماتها غالبا دينية الطـابع تجسد رؤى الإنسان للموت وللعالم الآخر حقبة طويلة من الوقت ، عندما انتقلت إلى قصور الملوك لتسجيل إنجازاتهم وترسم انتصاراتهم . أو لتجسد أبعادا دنيوية أخرى تناقض تلك الآفاق الدينية ، فتحفل المشاهد باللـذة ، كمـشاهد الـصيد أو النساء العاريات أو غيرها من المشاهد التى ترسم أبعاد الحياة الإنسانية وما تحفل به من صراعات .

وإذا كان تعريف الفلاسفة للفن بأنه هو التعبير المادى لفكرة دينية فى الإنسان أو بواسطة الإنسان ، وأن الدين والفن توأمان منذ البداية ، فهو يولد فى معظـم الحالات فى خدمة الدين . و التصميم الزخرفى الجدارى أو الجداريات من حقول الفن التشكيلي . فعلى هذا فإن المعتقدات الدينة كانت أساس نشأة الفن بوجه عـام

و التصميم الزخرفى الجدارى بوجه خاص وعلى ذلك فقد كان الفن فى البداية هو الوسيلة التى يستخدمها الإنسان الأول فى حمايته حسب معتقداته وطقوسه .

فالإنسان البدائى أقام على جدران كهوفه يزخرفها ولسنا نعرف إذا كان هذا رغبة منه فى جلب النفع أو لاتقاء الشر .

وأيا كان السبب فإن الشىء الذى لا شك فيه هو أن الإنسان الأول ، أعتقد بقوى عظيمة تؤثر فى كيانه دون أن يراها ، لذلك لجأ إلى الفن يستعين به على تحقيق بغيته ، فرسم على جدران كهوفه التى كان يحتمى بداخلها .

ولم يقتصر ذلك الفن على الإنسان البدائى فى معتقداته الساذجة ، بل أمتد بعد ذلك وبشكل أكبر لعصر الحضارة ، عندما تقدمت عقائده الدينية ، فقد أعتقد المصريون القدماء بعودة الروح ، وأن وراء الحساب ثواباً وعقاباً ، أنعكس أثر ذلك على سطوح جدران مقابرهم فأصبحت وكأنها لوحات متعانقة نتخيل أننا معها فى متحف قدسى ، أو أننا نعبر مجازاً سحرياً يصل بين عالم الأرض وعالم السماء ، لوحات تصور لنا الحياة الأخرى بمواكبها الجنائزية ، والمثول بين يدى الآلهة ، وشهود الحساب . شكل (١)

فقد تكرر مثل هذا المشهد الجدارى والذى يصور المواكب الجنائزية كما فى مثل هذا الشكل حيث نرى ذلك فى صفه العلوى والمكون من زورقين يحمل الأول ناووساً بداخله مومياء الميت ووقف على جانبيه النادبتان إيزيس ونفتيس ، وتلك المشاهد صورها المصرى القديم لتكون عونا له فى حياته الأخرى حسب معتقداته .

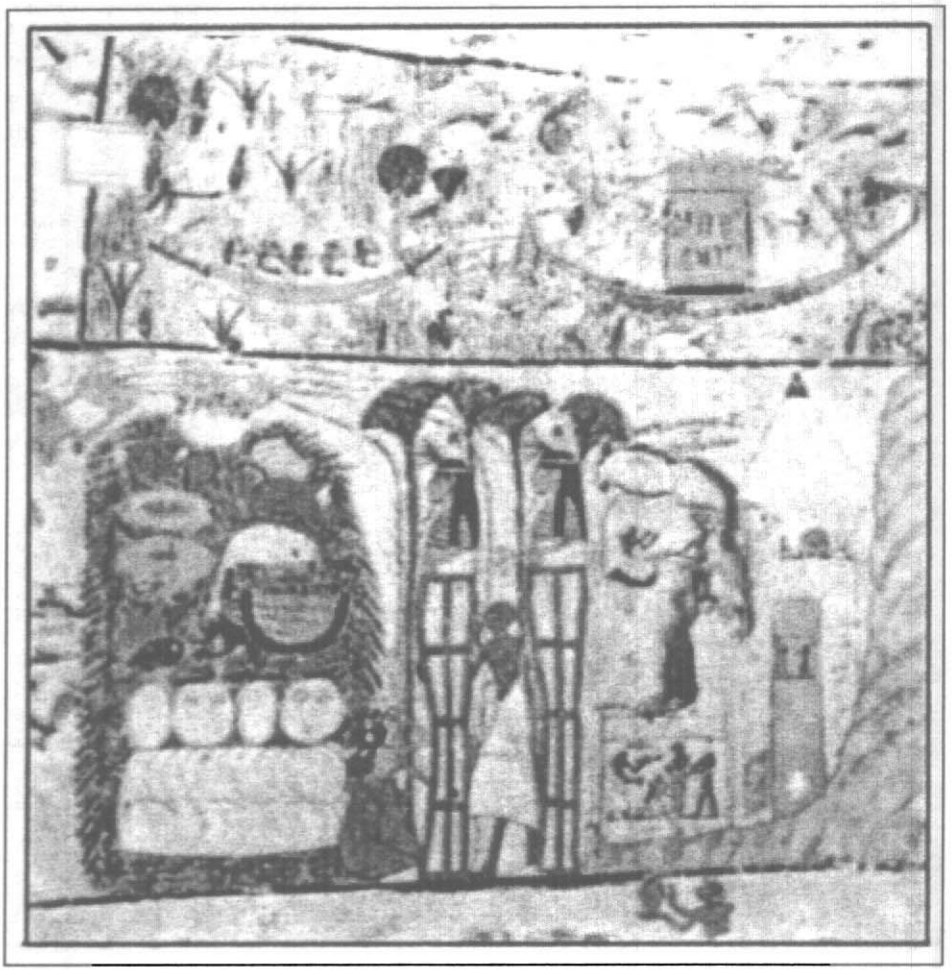

شكل (١) لوحة جدارية تمثل رحلة المتوفى الجنائزية
وتطهير المومياء أمام المقبرة
من مقــبرة " أمن – أم – أونت " دير المدينة ، طيــبة

وفى مشهد جدارى آخر وجد فى مقبرة رعموسى صور فيها جانباً آخر تكرر تصويره على جدران المقابر والذى يمثل مرحلة أخرى من مراحل نقل متعلقات الميت إلى قبره وفيه نرى حمل الأثاث الجنائزى إلى غرفة الدفن وهو ما كــان يهتم المصرى القديم وفق معتقداته ولهذا صور ذلك على جدران مقابره لتــذكره فى حياته الأخرى عند عودته للحياة مرة ثانية . شكل (٢)

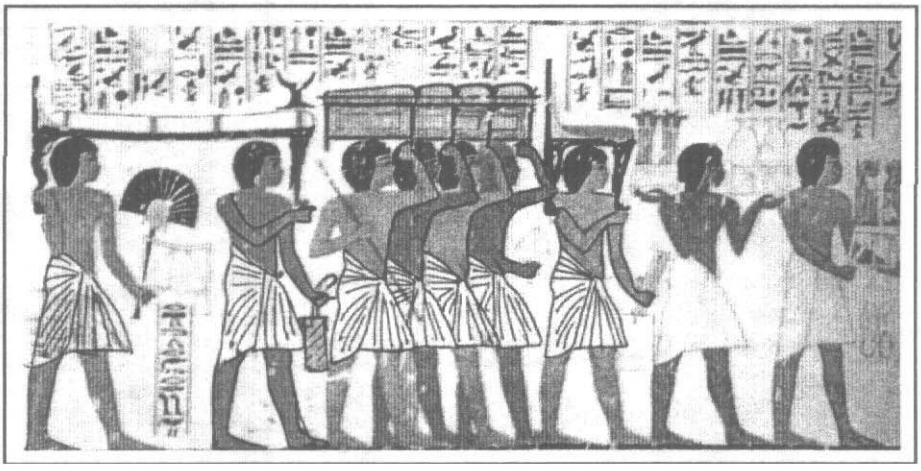

شكل (٢) لوحة جدارية تمثل حملة الأثاث الجنائزى والمرافقين للنعش من مقبرة رعموسى ، طيبة

ومن الصور الجدارية التى تحتوى على مشاهد تمثل حياة المتوفى فى السماء وسط المحيط الأزلى مع الإله ، ففى هذا المكان يعيش الميت مع الإله ويقوم ببعض الأعمال الزراعية التى يؤديها فى حياته الأولى .

وهذه اللوحة تنقسم إلى أربعة مشاهد أفقية : المشهد العلوى نرى فيه " سننجم " وزوجته من خلفه يضرعان لبعض الآلهة التى يتصدرها إله الشمس ، وقد جلسوا جميعاً على حصير فى شكل علامة العدالة . ومن خلف الآلهة جلس رع حوتب أحد أبناء الميت فوق زورق يسبح فى محيط السماء وفى نهاية المنظر وقف أحد الكهان يؤدى شعيرة "فتح الفم" على مومياء "سن نجم". شكل (٣)

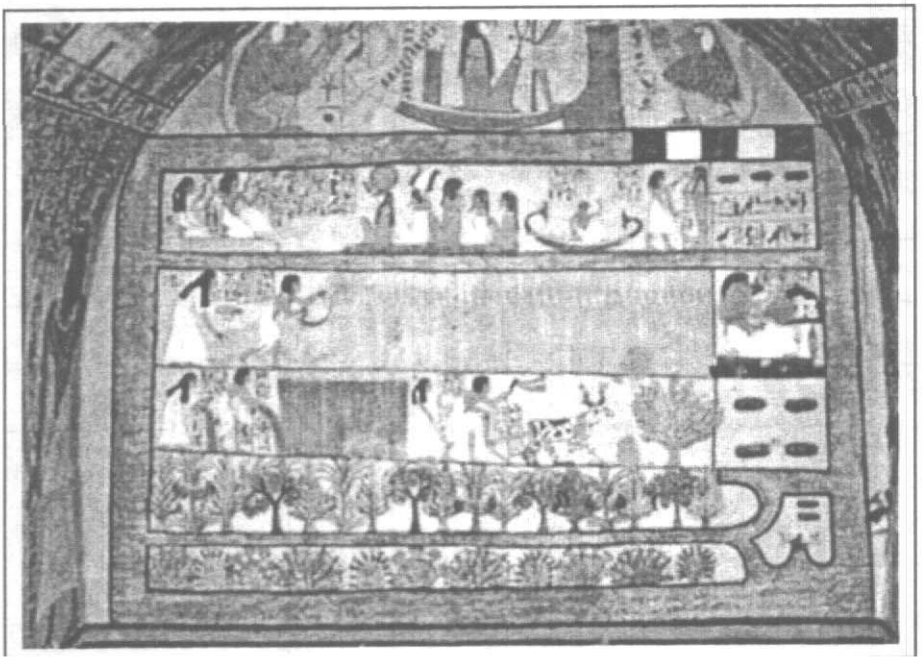

شكل (٣) لوحة جدارية حقول "أيارو" أو حقول النعيم
مثوى الموتى المباركين من مقبرة " سن – نجم " دير المدينة ، طيبة ، مقابر " العمال – الفنانين " – بداية الأسرة العشرين

وفى المشهد التالى له يظهر سن نجم وزوجته وهما يقومان بجمع محصول القمح وهذا كان نشاطهم فى حياتهم الدنيوية وقد صورا هذا على جدار مقبرتهم وذلك لتذكيرهم به عند عودة الروح والعودة إلى الحياة الأخرى حسب معتقداتهم.

وفى المشهد الثالث يقتلع سن نجم وزوجته نبات الكتان ثم يظهر وهو يحرث الأرض ومن ورائه زوجته تنثر البذور فى الأرض وهذا جانب آخر من النشاط الذى كان يمارسه المتوفى ويحرص على أن يصوره على جدرانه وذلك تأكيدا للفكرة السالف ذكرها وهى عقيدة البعث والخلود بعد الموت واحتياج المتوفى ليتذكر أنشطته التى كان يمارسها فى حياته الأولى .

وفى المشهد الرابع نرى أشجار الدوم والنخيل على حافة قناة ، كما نجد أنواعاً أخرى من النبات كاللفاح ذى الرائحة الذكية ، ونبات الخشخاش " المنّوم " يتخلله الفراش محلقاً ، وهى كلها صوراً احتاج صاحب المقبرة تصويرها لهدفه .

ويعلو المشاهد السابقة فى اللوحة ككل مشهد يمثل الإله " رع حارختى " إله الشمس وعلى رأسه قرص الشمس يحيط به الصّل وهو يسبح فى زورقه فى محيط السماء وقد ضرع إليه قردان متوجهان ، وكانت القردة تعدّ فى العقيدة المصرية من أتباع إله الشمس وهى صورة لترتيب منطقى لما هو مقدس ودينى وما هو دنيوى فهذا المشهد يعلو المشاهد الأفقية السابقة وذلك لأهمية وقدسية .

وتعدد الأعمال الفنية وبخاصة الجدارية فى المعابد والمقابر المصرية القديمة إن دل على شىء فإنما يدل على أهمية تلك الأعمال فى خدمة العقيدة وكذلك تفانى المصرى القديم فى إنتاج تلك الأعمال لخدمة العقيدة والحياة الأخرى .

وفى اللوحات الجدارية فى الفن المسيحى وبخاصة المذهب الكاثوليكى اعتمد كلياً على الفن ، فى توضيح تعاليمه ، وتصوير الحوادث الدينية وتاريخ المسيحية وسيرة أبطالها فى تصميمات زخرفية عديدة منها لوحة للفنان ميكل أنجلو " يوم القيامة " وهى لوحة جداريه بقبو سقف مصلى كنيسة سيستين بالفاتيكان بروما . شكل (٤) .

وهذه اللوحة تنقسم إلى عدة موضوعات : السيد المسيح يتوسط القسم الأعلى يمينه الصليب وأدوات التعذيب وفي القسم الأوسط مجموعة بشرية من الأخيار ينعمون بالجنة .. وفي القسم الذي يليه ، القادمون والذين سينزلون إلى الجحيم ، خائفون ، قلقون ، يقتلهم الهلع من لحظة انتظارهم الجحيم.. والقسم الأخير الأسفل . أعماق الجحيم في أسفل السافلين . شكل (٥)

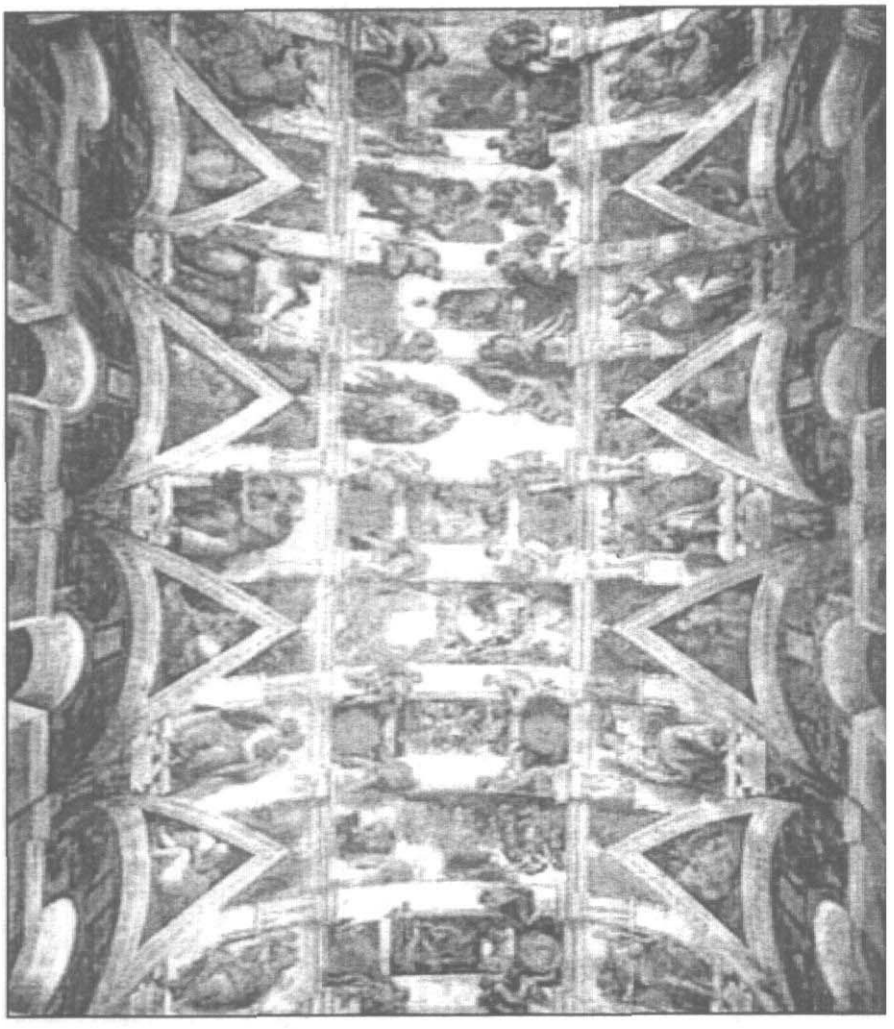

شكل (٤) لوحة يوم القيامة للفنان ميكل أنجلو
بسقف كنيسة سيستين بروما

شكل (٥) تفصيل للوحة يوم القيامة للفنان ميكل أنجلو
يوضح مجموعات من البشر تمثل مواقف مختلفة

هذه اللوحة لها طابع التصميم الزخرفى الجدارى لما تحتويه من عناصر تكرارية فى أسلوب تنظيمى بديع يعكس الطابع الملحمى التاريخى ، حيث تحكي قصة الخير والشر، والمكافأة والعقاب .. فيها عدد لا حصر له من البشر.. لكل مجموعة منهم تكوين وحركة خاصة بهم توحي بالوضع الذي هم عليه .

فهى دراما إنسانية ، تراجيديا حقيقية عندما رسم الإنسان وهو يسقط إلى الجحيم .. إنها ملحمة إنسانية مرعبة ، فقد استطاع أن يصورها مكتشفاً جوهر الإنسان وخوفه من العقاب لقاء الشر الذى مارسه فى حياته .. رسمه وهو يصارع الموت ويدافع عن الحياة بطريقة تعبيرية تكاد تكون واحدة من معجزات الفن عبر التاريخ كله ، رسم الموت فى عيون الإنسان الذى يرى الهلع والنهاية.

وإذا كان الفن المصرى القديم والفن القبطى زاخرين بالأعمال التى ارتبطت بالعقيدة فإن الفن الإسلامى تفرد عن غيره من الفنون السابقة بتأثره بالعقيدة الإسلامية ، الأمر الذى جعل الفن الإسلامى قروناً عدة مقصوراً على الزخرفة وبات الفنان المسلم يبذل كل جهده فى زخرفة دور العبادة من المساجد إيماناً منه فى أن هذا لخدمة عقيدته وبعداً عن التصوير والذى كان معتقداً بحرمته وكذلك إبراز مهارته فى ملىء أى فراغ فى مساحة الجدران كما تملأ عقيدة فكره وقلبه. شكل (٦)

ويتضح من هذا مدى تفانى الفنان المسلم فى شغل كل المساحات المتاحة بجداريات ذات تكوينات غنية بالتنوع والقيم الفنية وهذا الجهد لا يتأتى إلا من دافع قوى وعقيدة راسخة وإيمان بأهمية ذلك .

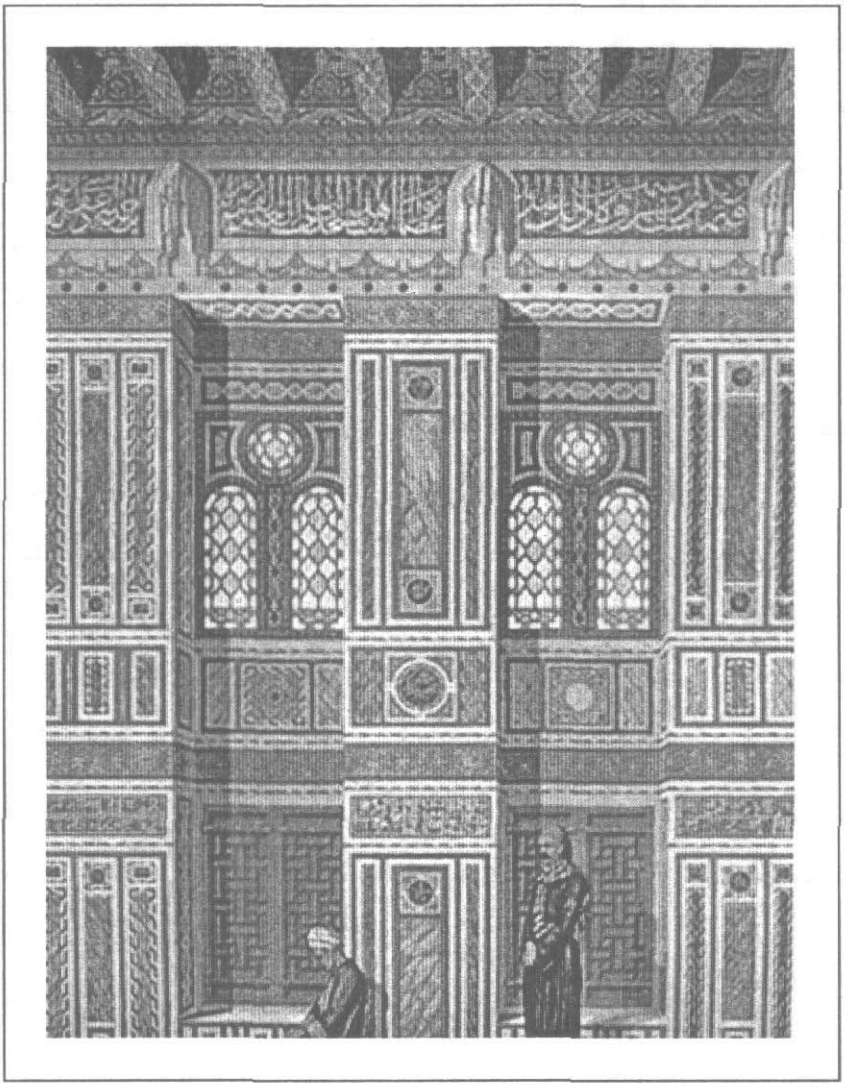

شكل (٦) مسجد البردينى بالقاهرة من الداخل
ويظهر على جدرانه اللوحات الزخرفية المتعددة والمتنوعة

وليس هذا فقط بل تنوعت إبداعات وأفكار الفنان المسلم لكل مكان قدسى ومن خلال الجدران ولكن بأسلوب آخر فريد من نوعه يتمثل فى " كساء الكعبة المشرفة " حيث تتكون كسوة الكعبة المشرفة من خمس قطع تغطي كل قطعة

وجهاً من أوجه الكعبة المشرفة والقطعة الخامسة هي الستارة التي توضع على باب الكعبة المشرفة ويتم تجميع هذه القطع الأربع بتوصيلها معاً على الكعبة المشرفة بعد خلع الثوب القديم .وتلك الكسوة التى تغطى جدران الكعبة المشرفة تحظى بأهمية كبرى فى شغل مساحاتها بأرفع مجالات الفنون الإسلامية من زخارف ورقية (أرابسك) وهندسية وبعض الكتابات فى لوحات فنية غاية فى الإبداع وتترابط فيما بينها فى كيان متماسك رغم تنوعها مما يكسبها جمالاً متفرداً فى الواقع وفى خيال فنان شعبى يحاور الجدران برسوم جدارية يتخيل فيها منظر الكعبة وكسوتها محتفلاً بمناسبة دينية سنوية وهى حج بيت الله الحرام كتقليد سنوى يكون فى استقبال الحاج عند عودته ليكون للعقيدة ارتباط روحى بالفن ليكون وسيلة دائمة فى خدمته . شكل (٧)

وهذه الكسوة التى تغطى جدران الكعبة المشرفة حظيت بأهمية كبرى فى شغل مساحاتها بزخارف توريقية (أرابسك) وهندسية وبعض الكتابات فى لوحات فنية غاية فى الإبداع وتترابط فيما بينها فى كيان متماسك رغم تنوعها مما يكسبها جمالاً متفرداً فى الواقع وفى خيال فنان شعبى يحاور الجدران برسوم جدارية يتخيل فيها منظر الكعبة وكسوتها محتفلاً بمناسبة دينية سنوية وهى حج بيت الله الحرام كتقليد سنوى يكون فى استقبال الحاج عند عودته ليكون للعقيدة ارتباط روحى بالفن ليكون وسيلة دائمة فى خدمته . شكل (٨)

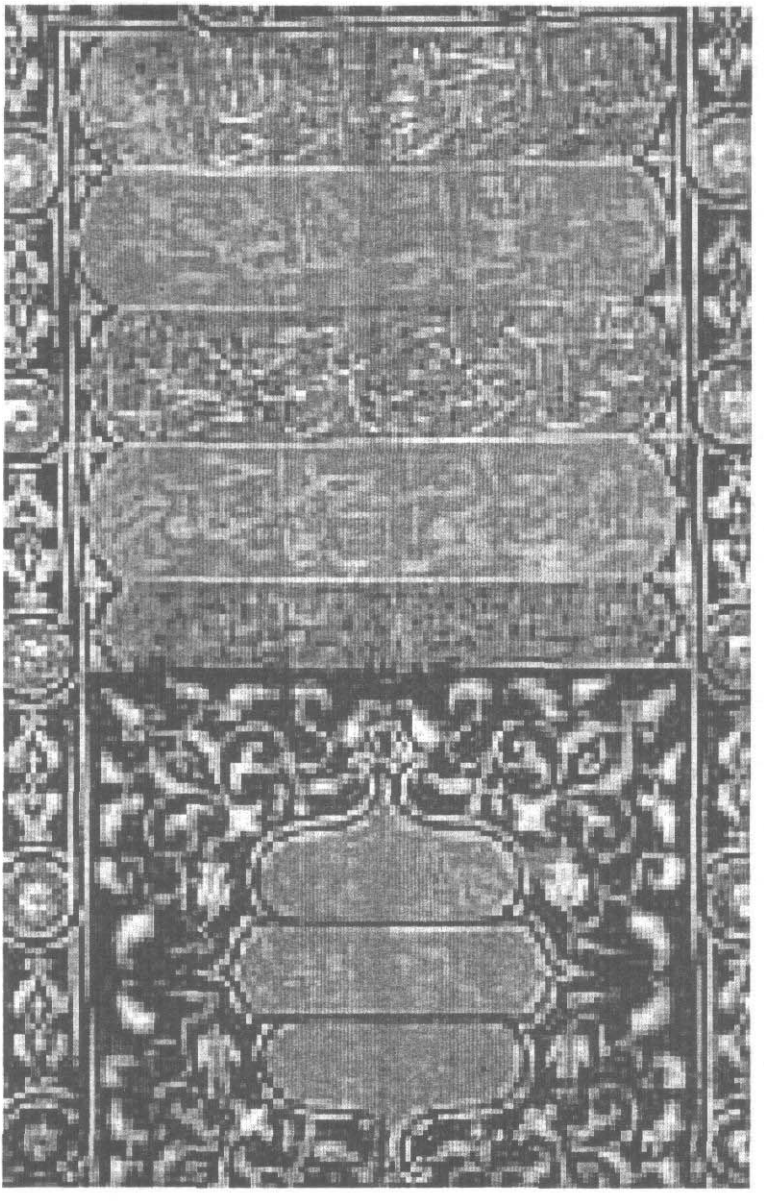

شكل (٧) جانب من جوانب كسوة الكعبة
ويتضح فيها التكوينات الزخرفية والكتابات القرآنية

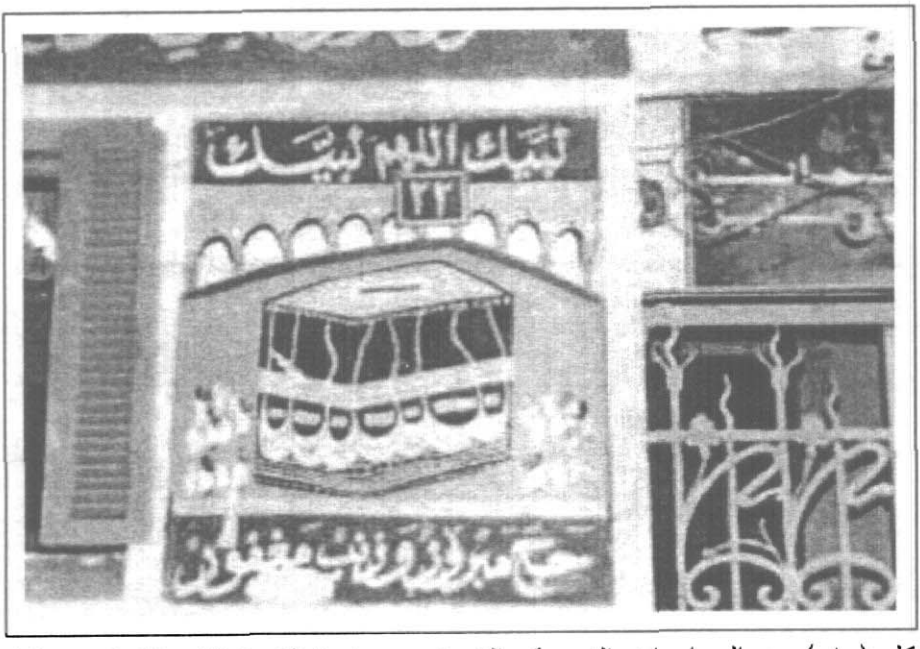

شكل (٨) من الجداريات الشعبية والتى تصور فيها الكعبة الشريفة بكسوتها كما يتخيلها الفنان الشعبى

مما سبق يمكن أن نستنتج أن المعتقدات الدينية كان لها أكبر الأثر على نـشأة الفن وتطوره على مر العصور ويؤكد ذلك ما قاله " إرنست فيشر" : " بأنه تتزايد الآن الأدلة التى تثبت أن أصول الفن إنما ترجع إلى الـسحر . فـالفن هـو أداة سحرية للسيطرة على دنيا واقعية لكنها لا تزال مجهولة . وكـان الفـن والعلـم والدين جميعا أدوات كامنة فى السحر... ولم يلبس السحر أن أنقسم بالتدريج إلى الأديان البدائية ، والعلم ، والفلسفة".